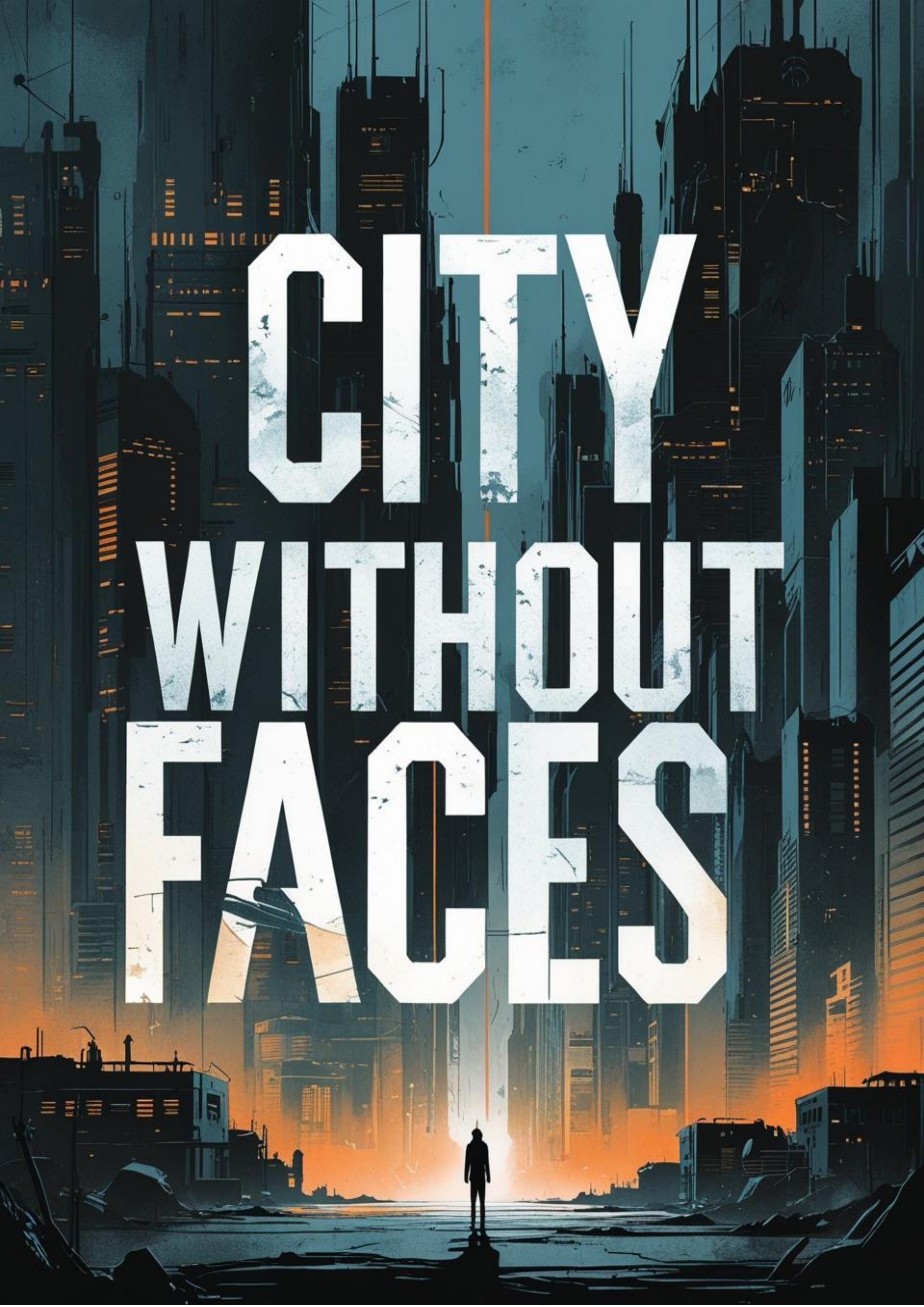
CITY
WITHOUT
FACES

رواية

مدينة بلا وجوه

تأليف

مصطفى احمد الهجر

Email: ahahahmed349@gmail.com

Phone: +9647801602459

جميع الحقوق محفوظة

جمهورية العراق محافظة ذي قار مدينة الناصرية

May /23/ 2020

14 / شوال/ 1441 المجهول

الفهرس

الفصل الأول :الصرخة الأولى في زقاق معتم..7

الفصل الثاني :منطق الغرابة في زمن لا منطق فيه 9

الفصل الثالث :الكاهن الأسود...11

الفصل الخامس :الوجه الآخر للظل...15

الفصل السادس :كتابٌ بلا عنوان..18

الفصل الثامن :الانفجار في مرآة المدينة..22

الفصل التاسع :انهيار البنى 26

الفصل العاشر :الطريق إلى لا اسم له..30

الفصل الحادي عشر :داخل الغابة التي تشبه الذاكرة..34

الفصل الثاني عشر :المدينة التي لا تُشبه نفسها..38

الفصل الثالث عشر :ظل الزائر...42

الفصل الرابع عشر :المدينة التي تنسى أبطالها 44

الفصل الخامس عشر :الصمت الذي يتكلم...46

الفصل السادس عشر :الرحيل والعودة هدوء ما بعد العاصفة 48

شخصيات الرواية:

- **جون**

شاب فقير ذكي، بطل الرواية الرئيسي. يعيش في مدينة خيالية ويخوض رحلة فلسفية داخلية عميقة تتضمن مواجهة الذات، الظلال، والبحث عن معنى الحياة والحرية. يتميز بالوعي العالي والتأمل العميق.

- **ناديا**

شابة رفيقة جون في الرحلة، شخصية عاطفية وعميقة التفكير. تمثل الحب والمقاومة في الرواية، وتعكس قدرة الإنسان على رؤية الآخر بصدق وبدون أقنعة، وتبحث عن الانتماء الحقيقي.

- **ميراي**

شخصية متزنة وحكيمة، تملك قدرة عالية على الصمت والتأمل. تمثل الحكمة والقبول الداخلي، وتعلمت أن الصمت لغة قوية يمكن من خلالها فهم الذات والعالم.

- **ألدوس**

رجل ناضج وعملي، يحمل بين تجاربه ثقل الحكمة. يؤمن بأن المعرفة ليست إجابة نهائية بل رحلة مستمرة من التعلم والقبول. يمثل العقلانية والتأمل في معاني الحياة.

- **ظل الزائر (الظل)**

شخصية رمزية مرعبة تمثل الخوف، الشك، والألم المكبوت داخل النفس البشرية. يظهر ليختبر الشخصيات ويجبرهم على مواجهة أنفسهم الحقيقية، ليس كعدو، بل كجزء لا يتجزأ من الذات.

- **الكاهن الأسود:**

كيان رمزي يظهر لجون في لحظة تيه داخلي، لا يُمثّل شخصًا بقدر ما يُجسّد فكرة معقّدة؛ إنه ظلّ الفكرة التي لم تولد بعد، وصوت الشكّ العميق الذي يتحدّى الأمل، الحرية، والمعنى. لا يُرشد، بل يُعرّي، ويظهر كمرحلة حاسمة في رحلة البطل نحو الوعي الذاتي. وجوده غامض، وحديثه فلسفي قاتم، لكنه يُشكّل لحظة التحوّل من الوهم إلى الصدق.

- **إيلين:**

فتاة غامضة تظهر في لحظة مفصلية من رحلة جون، تحمل في حضورها رائحة الماضي وصدى الذكريات التي لم تُصفَّ. تبدو صغيرة في سنها، لكنها تحمل حكمة تفوق أعمار الآخرين، وكأنها خارجة من أسطورة أو حلم قديم. إيلين ليست فقط شخصية، بل تمثّل **الجانب المنسي من الذات**، الجزء الذي يذكّر جون – وكل من حوله – بأن الماضي لا يموت، بل ينتظر مواجهته. كلماتها عميقة، حضورها هادئ، لكنها تطرح أسئلة موجعة عن الألم، الندم، والقبول. هي رمز للماضي الذي لا يريد الرحيل، بل أن يُعاش ويُفهَم.

الفصل الأول :الصرخة الأولى في زقاق معتم

لم يكن يدري إن كان اليوم أحد الأيام الباردة أم أن العظام قررت أن تُعلن احتجاجها المتأخر على حياة لم تمنحها غير الخواء. كان وجهه شاحبًا، وعيناه الغائرتان تلمعان بضوء غير مرئي. الضوء الوحيد الذي يشع من الداخل حين تظلم كل النوافذ.

في الزقاق ذاته، حيث تتكدّس الأرواح المهملة كما تتراكم النفايات تحت النوافذ المنسية، كان يمشي كمن يسير فوق خيط دقيق من الجنون. لا بيت، لا وجه ينتظره، لا اسم يُنادى به سوى "ذلك الغريب النحيل" أو "الممسوس بالفكر."

اسمه، إن أردت أن تعرف، هو جون.
جون، لا يملك نظم حياته، لكنه يحفظ عن ظهر قلب مقاطع من "الفردوس المفقود" لجون ميلتون، ويفكّك العالم إلى قضاياه الجوهرية بين كل قضمة خبز ناشفة يسرقها من دكّان العجوز.

لم يكن مجرمًا، ولا قديسًا، بل شيء بين هذا وذاك. مزيجًا من الأسى والنباهة، يسكنه الغضب النبيل على ظلمٍ لا يعرف مصدره، ونارًا لا يجد لها معنى.

"لِمَ خلقوني؟"

كانت هذه الجملة تتردّد في رأسه كما يرنّ الجرس في دير مهجور. أهو سؤال فلسفي؟ ربما. لكنه لم يكن يطرحه من موقع التأمل، بل من خندق البرد والجوع والانكسار.

ذات مرة، نظر إلى صورة مشنوق في صحيفة قديمة، وقال:

"هذا الرجل، ربما لم يكن قاتلًا كما يقولون، بل فقط سأل السؤال ذاته كثيرًا".

المدينة التي يسكنها لا تحمل اسمًا واضحًا. أهلها لا يحبون تسمية الأشياء. وكأن إعطاء الاسم للأشياء يمنحها حضورًا لا يريدونه.
كانت مدينة غامضة، يغطيها الضباب لا لأن الجو هكذا، بل لأن الحقيقة ذاتها كانت خجولة، مترددة في الظهور.

جلس جون ذات مساء على حجر رطب قرب سور مهدم، وأخرج من جيبه كتابًا بلا غلاف.

"نيتشه؟ أو ربما شوبنهاور؟ لا فرق... الكل يقول الشيء نفسه بلغة مختلفة: الإنسان تعيس".

توقف فجأة، ونظر إلى السماء الرمادية.

"لكن، ما قيمة الذكاء إن لم يُشبع جوعك؟ ما فائدة الفلسفة إن كانت معدتك تصرخ؟ هل أفكر لأنني جائع؟ أم أجوع لأنني أفكر؟"

ارتجف، لا من البرد، بل من انكشاف الحقيقة.
كان يعرف منذ زمن أن عقله هو هبته ولعنته. كان يشعر أن العالم مكانٌ منقوص، وأنه، ربما، جاء ليصلح شيئًا، لكنه لا يعرف ماذا ولا كيف.

كانت المدينة تغلي في صمت. اللصوص لا يسرقون الذهب، بل الضمائر. القضاة لا يحكمون، بل يكتبون الشعر في خلواتهم. والأمهات يبكين، دون دموع، على أولادٍ لم يولدوا بعد.

قال جون في نفسه:

"هل عليّ أن أكتب؟ لا لأني أملك شيئًا أقوله، بل لأنني لم أعد أحتمل السكوت".

وقف، ويده ما زالت قابضة على الكتاب القديم. كان يبتسم لأول مرة منذ شهور، ابتسامة باهتة كأنها قادمة من زمن آخر.

"من لا يملك بيتًا، يستطيع أن يسكن في فكره".

مشى... وكان الليل أرحم من النهار، والظلمة أصدق من النور.

الفصل الثاني :منطق الغرابة في زمن لا منطق فيه

كان جون يسير في الشارع الضيق نفسه الذي عبره مرارًا، لكنّه في كل مرّة يشعر كأن الأرصفة تغيّرت، وكأن الجدران تشهق بصمت وهي تراقبه. لم يكن الشارع هو المتغير، بل وعيه المتقلّب، ذلك الذي يفتش عن شيءٍ لا اسم له، لكنه يلدغ قلبه كل مساء.

مرّ بجانب مقهى قديم اسمه "الساعة الثالثة"، رغم أنه لا يفتح أبوابه في الثالثة، ولا يغلقها في الثالثة. مقهى يسكنه غرباء الزمن، أولئك الذين لا يملكون ساعة ولا حاجة لامتلاكها.

جلس جون عند طاولة خارجية، طلب كوبًا من الشاي، وهو يعلم أنه لا يملك ثمنه. النادل لم يسأله. كأنهم اتفقوا، دون كلام، أن اللعبة لا تحتاج إلى قواعد.

"الشاي بلا سكر؟"

"بل بلا معنى".

ضحك النادل. وجون لم يضحك.

من بعيد، راقب شابًا يصرخ في المارّة، يصفهم بالدمى.

"أنتم لا تعيشون، أنتم تُدارون بخيوط لا ترونها"!

فكر جون:

"لو نطق مجنون بالحقيقة، هل تظلّ الحقيقة حقيقة؟ أم تصبح وهمًا لأنه مجنون؟"

ثم نظر إلى المارّة...
وجوه لا تتغير، كأنهم يبدّلون أجسادهم ولا يبدّلون تعابيرهم. حتى الألم صار محفوظًا، يُؤدّى كطقس لا كمأساة.

عاد جون إلى وحدته. لا أحد يجلس معه سوى أفكاره، وهي لا ترحم.

"كلما ظننت أنني فهمت شيئًا، تهاوى المفهوم في داخلي. ألهذا أخاف من اليقين؟ لأنني أعلم أنه كذبة مؤقتة؟"

بعد ساعات من الصمت، اقترب رجل غريب، لا يبدو من المدينة، جلس على الطاولة دون إذن. وجهه مربك: لا هو قبيح، ولا وسيم، كأنّ الزمن قرر تركه دون ملامح مكتملة.

"أتكتب؟"

"أُفكر".

"وهل بينهما فرق؟"

صمت جون. كان الجواب حاضرًا، لكن الرجل لم ينتظر.

"لا تقلق... ستموت يومًا ما. وعندها، كل أفكارك ستُصبح ترفًا مضى".

غادر الرجل، كما جاء. بلا صوت، بلا مقدمة، بلا وداع.

قال جون في نفسه:

"من هذا؟ هل هو أنا، بعد عشرين سنة؟ أو نسخة مني في زمن آخر؟ أم أنه فكرة تجسّدت للحظات؟"

وحين عاد إلى الزقاق، شعر أنه لم يذهب إلى أي مكان. المقهى، الشاي، الرجل... كلّها ربما لم تكن. وربما كانت، لكنها لم تُحدث فرقًا.

وقف تحت مصباح أصفر باهت، كتب في دفتره الممزق:

"الواقع هشّ، وكل ما نظنه حقيقيًا هو فقط ما لم يتصدّع بعد".

وأغلق الدفتر كما يُغلق القبر على آخر مناجاة.

الفصل الثالث :الكاهن الأسود

الليل في هذه المدينة لا يهبط... بل يتمدد. كأنّ العتمة لا تطرق الأبواب، بل تذوب في الجدران وتنبض من العيون. كان جون يتمشى دون وجهة، كما لو أن السير ذاته هو اعتراف وجودي، طريق طويل دون نهاية لأن النهاية لا تُرجى أصلًا.

لم يأكل منذ يومين. لم يكن يشعر بالجوع كوجع معدة، بل كفراغ داخلي يتسع مع كل فكرة، كأن الفكر يقتات عليه.

في منتصف زقاقٍ خانق، وجد بابًا خشبيًا مواربًا، ينفث نورًا خافتًا. كان ضوءًا أصفر، لا دفء فيه، لكنه ليس ميتًا تمامًا. دخله.

لم يكن المكان منزلًا، بل ما يشبه كهفًا محشوًا بالكتب، والجماجم، والشموع. رائحة بخورٍ ثقيل تملأ الهواء، وبين الظلال جلس رجل. طويل القامة، نحيل كعصا، يرتدي عباءة سوداء، لا يبتسم.

"أهلًا بك، يا من يسير بلا ظل".

جون تجمد في مكانه. لم يُفاجأ، بل كأن شيئًا ما فيه كان ينتظر هذا اللقاء.

"من أنت؟"

"أنا الذي يراك من حيث لا ترى نفسك. يسمّونني الكاهن الأسود، ولست كاهنًا، ولا أسود. إنما ظل الفكرة التي لم تولد بعد".

جلس جون دون أن يُدعى. المكان لا يُقاس بالمكان، واللقاء لا يحتاج بروتوكولًا حين يكون داخل المتاهة.

"أبحث عن شيء لا اسم له".

"الجميع يفعل. لكن المشكلة ليست في الاسم، بل في الوهم أن ما لا نملكه نحتاجه".

قال جون:

"أنا لا أؤمن بالأمل".

ابتسم الكاهن لأول مرة.

"ولا أنا. الأمل سكرٌ للعقول الضعيفة. لكن انظر إليك، ما زلت تسير، وما زلت تحيا. تلك رغبة متخفية في الاستمرار، يسميها الناس أملًا، ويسميها العقل: الإنكار".

ساد صمت ثقيل، كأن الكلمات ارتطمت بسقف الوعي ثم ارتدت متكسرة.

"هل ثمة معنى؟"

"هناك دائمًا معنى، لكن الوعي هو المشكلة، لا الوجود. الأشياء لا تحتاجنا لتمتلك مغزاها. الشمس لا تنتظر أن تُفهم، ولا الموت يُبرَّر".

جون ينظر إلى الشموع التي تتآكل ببطء، ويهمس:

"هل أنا حر؟"

"كذبة الحرية أطول عمرًا من الأديان. تُولد ولا تُسأل. تفكر ولا تُختار ما تفكر به. حتى رغبتك بالهرب ليست حرة، بل رد فعل. لو كنت حرًا تمامًا، لاخترت ألا تكون".

نهض جون، شعر كأنه غرق دون ماء، كأنّه يستفيق من يقظة لا منام.

"إن كنت لا أملك المعنى، ولا أملك الحرية، ولا الأمل، فما الذي أملكه؟"

"الوعي. وهذا عقابك".

نظر جون إلى وجه الرجل... لم يكن له وجه. أو هكذا خُيّل له. كان مزيجًا من الظل والتجاعيد والصمت.

"هل كنت موجودًا فعلًا؟ أم أنك اختُرعت لأكمل انكساري؟"

"وما الفرق؟ الفكرة التي تُولد في عقلك تصبح أقوى من العالم".

خرج جون من المكان دون أن يدرك كيف. الشارع لم يعد كما كان. كان أكثر اتساعًا، أو ربما هو أصغر.

تهاوت في قلبه فكرة لم يستطع أن يوقفها:

"ماذا لو كان كل ما أعيشه إسرافًا في التفكير، لا أكثر؟ ماذا لو أن الحقيقة صخرة ناعمة، لا تقطع، بل تسحق ببطء؟"

جلس على الرصيف. شاب، فقير، وحيد، مفكر. كائن لا يحتاج إلى موت جسدي ليشعر بالعدم، يكفيه أن يفتح عينيه كل صباح.

كتب في دفتره:

"أنا لا أعرف إن كنت سأكتب هذا لأنقذ نفسي، أو لأدفنها. لكنّي سأكتب".

الفصل الرابع :امرأة من ضبابٍ وفكرة

لم يكن الصباح مختلفًا عن المساء. في تلك المدينة، الضوء لا يُشرق بل يتسرب، كما يتسرّب الندم في قلب رجل نجا من الموت دون أن يعرف لِمَ نجا.

كان جون جالسًا على الدرج الحجري لمبنى مهجور، يحدّق في صفحة بيضاء لا يعرف بماذا يملؤها.

فجأة، مرّت بجانبه امرأة. لم يسمع خطواتها، لكنه شعر بها، كما يُحسّ المرء بذبذبة في داخله حين يعبر قطار فكرة ما في اللاوعي.

كانت ترتدي معطفًا بلون الغبار، شعرها متموّج كسؤال غير محسوم، وعيناها... لا يمكن القول إنهما جميلتان، بل كانتا تقرآن ما لا يُقال.

توقفت. نظرت إليه.

"أهذا مقعدك اليومي للشكّ؟"

رفع جون رأسه ببطء. لم يتحدث.

"أنا أراك كل يوم هنا، كما لو أنك تمارس طقوس الانهيار بالتدريج. ممتع، لكنه بطيء".

قال، دون وعي:

"ومن أنتِ؟"

"اسماء كثيرة، لكن لنقل: ميراي".

"اسم غريب عن هذه المدينة".

"المدينة نفسها غريبة. كل شيء فيها يبدو كما لو أنه لم يكتمل. حتى الغياب هنا ناقص".

ساد صمتٌ طويل. لم يكن بينهما تودد، بل فضولٌ متوتر، كأن كلٌّ منهما يرى في الآخر بابًا لا يعرف إن كان يؤدي إلى غرفة أم إلى هاوية.

"هل تؤمنين بشيء؟" سأل جون.

"أنا لا أؤمن... أنا أعيش، فقط".

"وهل يكفي أن نعيش؟"

"إن لم يكن كافيًا، فماذا تقترح؟ أن نموت بفلسفة؟"

شعر جون أن إجاباتها ليست تهكمية، بل مصقولة بخيبة طويلة. كأنها جرّبت كل الأسئلة، ووجدت أن الصمت أكثر أمانًا.

"أكتب منذ أعوام، ولم أفهم نفسي بعد".

"ربما الكتابة ليست للفهم، بل للنجاة. أو للتمويه".

"وأنتِ؟ ما الذي تفعلينه في هذه المدينة الرمادية؟"

"أنا أنتظر... لا أحد بالتحديد. فقط أنتظر أن يتغير شيء في هذا الجمود. أو ربما أنتظر نفسي حين أجدها".

كان يشعر وكأنه يتحدث مع انعكاسه، لكنها أكثر وقاحة. لا تخاف من الأسئلة، ولا تتعلق بالأجوبة.

سألها فجأة:

"هل نحن أحياء لأننا نختار ذلك؟"

"نحن أحياء لأن الموت لم يأتِ بعد".

"متى يعود الإنسان إنسانًا؟"

"حين يكفّ عن الحزن كأنه قدر".

قالتها ومشت. كأنها لم تأتِ أصلًا. لكن أثرها بقي.

عاد جون إلى دفتره. كتب بخطٍ مرتجف:

"اليوم، التقيت بفكرة على هيئة امرأة. ربما لا شيء سيتغير، لكن الآن، أعرف أن الصمت لا يعني الفراغ دائمًا... بل ربما يكون امتلاءً لا يحتمل النطق".

نظر إلى السماء. كانت رمادية كعادتها، لكن الضوء... الضوء كان يميل قليلاً نحو الأزرق.

الفصل الخامس :الوجه الآخر للظل

في تلك الليلة، لم ينم جون.
لا لأنه أراد أن يكتب، ولا لأنه كان يفكر، بل لأنه شعر أن شيئًا ما قد انكسر في توازنه الداخلي، انكسارًا لم يحدث بصوت، بل برعشة خفيّة بين الضلوع.

كانت كلمات "ميراي" تتردد في ذهنه:

"ربما الكتابة للتمويه"...

تمويه عن ماذا؟
عن الجوع؟ عن فقدان المعنى؟ عن حقيقة أنه لا يبحث عن الحقيقة، بل فقط عن شعور مؤقت بالامتلاء؟

الساعة الثالثة فجرًا. عاد إلى "المقهى"... المكان الذي لا ينام.

جلس في الزاوية، وطلب شايًا مرة أخرى. لم يكن النادل ذاته.
كان هناك شاب بملامح مشوّشة، يضع كتابًا مفتوحًا على الطاولة، لكنه لا يقرأ. فقط يُقلب الصفحات دون النظر إليها.

"هل تقرأ بلا عيون؟"

ردّ الغريب:

"بل أبحث عن صفحة لا توجد، لكنها تعِدني بالسلام".

سأل جون:

"هل وجدت السلام يومًا؟"

"لحظة واحدة... حين كنت على حافة الانتحار. لا لليأس، بل لأنني أدركت حينها أن الحياة ليست وعدًا، بل اختبار للصبر على اللاجدوى".

ابتسم الغريب فجأة.

"وأنت؟ تبدو كأنك تركض دون حركة".

"أنا؟ أنا أتآكل".

لم يُكمل الجملة.

شيء في داخله كان يصيح، بلا صوت. عاد إلى دفتره، فتحه، فوجد أن السطور تغيرت .ما كتبه بالأمس لم يكن كما هو.

كانت الصفحة تقول:

"جون، لست أنت من يكتب، بل نحن".

تجمّد. هل كتب ذلك بيده؟ متى؟ وهل فقد ذاكرته؟ أم أن شيئًا آخر، شخصًا آخر، أو فكرة أخرى، تسكنه؟

عاد إلى الغرفة التي ينام فيها إن سُمِّي النوم نومًا حين لا تجد في اللاوعي حتى ملجأ.

تمدد على الأرض الباردة، وأغلق عينيه. وحين فتحهما، لم يجد السقف.

بل وجد سماء سوداء، فيها نجوم تتحرك كالعقول القلقة.

ووسطها، وجهه هو، لكن مشوهًا، ينظر إليه ويقول:

"أتظن أن الهروب من العالم يبدأ من الخارج؟ لا يا جون... الجحيم هنا، فيك، في فكرك، في محاولتك أن تكتب لتنجو، بينما تكتب لأنك تهلك".

صاح جون:

"من أنت؟"!

"أنا أنت... كما كنت قبل أن تبدأ بالتفكير. أنا جون الطفولي، الذي ما زال يريد حضنًا، لا معادلة".

صرخ جون... ثم استيقظ.

لكنه لم يكن في غرفته. كان في مقبرة.

مقبرة مهجورة، لا شواهد، لا أسماء، فقط تراب ورائحة بلل.
في الزاوية، كانت **ميراي** واقفة، تنظر إليه دون أن تفاجأ.

"أظنك وصلت أخيرًا".

"إلى أين؟"

"إلى داخلك".

جلس على الأرض. لم يندهش. لم يفرح. فقط... استسلم للحظة، كأن شيئًا ما اكتمل.

قالت ميراي:

"ليس المهم أن تجد معنى للحياة، بل أن تعيش رغم غيابه".

"لكن ذلك يجعلني هشًّا".

"الهشاشة... شكل من أشكال الصدق".

صمتنا طويلًا. ثم نهضت ميراي، وغادرت دون أن تلتفت.

بقي جون هناك، في المقبرة التي قد لا تكون حقيقية، يكتب في دفتره الأخير:

"أنا الظل الذي عاش داخل جسد، والآن... خرج أخيرًا. لست بحاجة لفهم كل شيء. يكفيني أن أشهد".

الفصل السادس :كتابٌ بلا عنوان

في اليوم التالي، لم يغادر جون غرفته. لم يذهب إلى المقهى، ولا إلى الزقاق، ولا إلى المقبرة التي لم يعرف إن كانت حقيقية أم حلمًا طويلاً.

جلس أمام دفتر فارغ، دفتر جديد، له غلاف جلدي أزرق باهت كسماء المدينة حين تُصاب بالملل.

وضع القلم على الصفحة، ثم سحب يده.

قال في نفسه:

"هذه المرة، لن أكتب يوميات. لن أكتب شعورًا ولا رأيًا. سأكتب... لأنني لا أحتمل الصمت بعد الآن".

كتب في أول السطر:

"في البدء، كان الارتباك".

ثم توقف.

هل يكتب رواية؟ فلسفة؟ هل هو اعتراف أم تمرّد؟

لا يعلم. لكنه كتب.

كتب عن رجلٍ اسمه "المجهول"، لا نعرف من هو، ولا من أين جاء. رجل يشبهه، لكنه ليسه تمامًا. كتب أن المجهول كان يعيش في عالمٍ لا يحتوي على ألوان، فقط درجات من الرماد. وأنه كان يفكر كثيرًا، لكن دون كلمات، فقط صور.

كتب:

"المجهولو لم يكن حيًّا تمامًا، لكنه لم يمت أيضًا. كان حالةً من بين الحالتين، عالقةً في السؤال".

وكلما كتب أكثر، شعر أنه يتفكك... أن جسده أصبح أضعف، وعقله أصبح أكثر صفاءً، كأنه يتطهّر من الضوضاء التي في داخله.

"أنا لا أكتب قصة. أنا أحفر في نفسي".

كتب عن الطفولة... عن لحظةٍ رأى فيها أباه يبكي دون سبب. وعن المرة الأولى التي عرف فيها أن الحب ليس وعدًا، بل احتمال خطير.

كتب أن "المجهول" لا يثق بالذاكرة، لأنها تُجمّل الأشياء لتجعله يواصل العيش.
كتب أن "المجهول" يؤمن بأن الخوف ليس من الموت، بل من الحياة بعد أن يُكتشف أنها خدعة.

وكلما كتب، سمع صوته الداخلي بوضوح:

"جون... أنت لا تبحث عن الحقيقة، بل عن صورة تهدّئك. حتى أفكارك صُنعت لتخفف عنك جحيم المعرفة".

وضع القلم. شعر بالتعب، لكنه ليس تعب الجسد، بل تعب الكينونة، حين يكتشف المرء أنه لم يكن في أي مكان طوال حياته، بل كان ضيفًا في نفسه.

ثم فجأة... سمع صوت طرق على الباب.

لم يكن أحد يطرق باب غرفته منذ شهور.

نهض ببطء. فتح الباب.

ولم يكن أحد هناك. فقط ظرف صغير موضوع على الأرض.

رفعه. فتحه. وجد فيه ورقة مكتوب عليها بخط ميراي:

"حين تكتب، راقب من يكتب معك".

لم يكن يدهش بعد الآن. لكن في هذه المرة، ارتجف.

من يكتب معه؟ هل هو جنونه؟ ذاكرته؟ ظله؟
أم أنه كما قال "الكاهن الأسود" ذات مرة:

"أفكارك ليست لك... بل زوّارك".

عاد إلى الطاولة. قلب الصفحة. وكتب عنوانًا:

"الفصل السابع: حين يخرج النصّ من الورق".

ثم ابتسم للمرة الأولى... لا ابتسامة سعادة، بل ابتسامة من عرف أن اللعبة لا يمكن الفوز بها، ومع ذلك قرر أن يلعب.

الفصل السابع :حين يخرج النصّ من الورق

اليوم كان رماديًا... لا أكثر ولا أقلّ.

لم يعد "جون" **يميّز بين الأيام، لكنها كانت تتشابه على نحو مزعج، كما لو أن الزمن في هذه المدينة يدور داخل غسّالة قديمة، لا تنظف الأيام، بل تكرّرها.**

كان قد كتب بالأمس فصلًا من كتابه المجهول، رواية عن رجلٍ يُدعى "المجهول"، يعيش في مدينة بلا أبواب، يرى رؤى عن امرأة تُكلّمه دون أن تفتح فمها.

كتب أن تلك المرأة قالت له شيئًا غامضًا:

"ما تُفكّر به الآن، سيحدث لك غدًا".

لم يكن يعلم أن هذه الجملة لن تبقى حبرًا.

حين خرج من غرفته ذلك الصباح، رأى امرأة واقفة تحت عمود إنارة مكسور، لم يكن يفترض أن يعمل.

لكنها كانت تقف، بثبات، كما وصفها تمامًا في كتابه.

اقترب. لم تتكلم.

فتش في ذاكرته، في الصفحة، في الكلمات...

"ما تفكر به الآن، سيحدث لك غدًا".

ارتجف.

"ميراي؟"

لم تجب.

لكنها اقتربت منه، ومدّت يدها، ووضعت في راحته دفتره الذي تركه في غرفته قبل قليل.

سألها:

"كيف...؟"

وقبل أن يُكمل، اختفت.

ليس كخرافة، بل كفكرة انتهت.

فتح الدفتر.

فوجد على الصفحة الأخيرة شيئًا لم يكتبه:

"الكاتب يُجرّب أن يخلق عالمًا لا يهرب منه، فيكتشف أنه محبوس فيه".

لم يكن خطّه.
لم يكن تاريخ الصفحة متوافقًا مع الأمس.

جلس على الأرض. شعر بأن النصوص لم تعد تُطوّع الواقع، بل تتجاوزه، تُعيد تشكيله.

قال في نفسه:

"أنا أكتب، نعم... لكن من الذي يحرّك قلمي؟ من الذي يُملي عليَّ هذا؟!"

وسمع صوتًا... لم يكن خارجيًا، بل داخليًا، لكنه واضح:

"جون... لقد أصبحت ما كنت تخاف منه".

التفت، ولم يجد أحدًا.

عاد إلى غرفته، وأغلق الباب جيدًا. لكن الباب لم يكن كما تركه.

نُقش عليه الآن بخط واضح:

"الفصل الثامن: الانفجار في مرآة المدينة".

لم يكن كتب هذا الفصل بعد. لكن يبدو أنه قد بدأ.

فالدنيا كانت أكثر صمتًا من المعتاد، والنافذة لا تعكس وجهه، بل شخصًا يشبهه دون عيون.

شعر أن الحبر في الدفتر بدأ ينزف.

لم يكن مجازًا.

مدّ أصبعه، فوجد بقعة حمراء، دافئة... دمٌ حقيقي. كتب جملة سريعة:

"أنا أكتب لأعرف إن كنت أعيش".

فجاء الردّ على الصفحة التالية دون أن يحرّك القلم:

"بل أنت تعيش لأنك تكتب".

الفصل الثامن :الانفجار في مرآة المدينة

لم يعد للمدينة شكلٌ واحد، ولا لجون هوية ثابتة.

في صباحٍ غائم، طرق الباب بقوة. لم يكن ينتظر أحدًا، ولا حتى نفسه.

فتح، فوجد أمامه رجلًا في منتصف العمر، يرتدي معطفًا ثقيلًا رمادي اللون، عينيه غارقتان في ظلال ماضٍ مجهول.

"هل أنت جون؟"

لم يجب. الرجل تابع:

"أنا ألدوس. لقد أتيت لأنك تبحث عن أجوبة، لكنك فقط غرقت في الأسئلة".

جلس الرجل في الزاوية، وأخرج من جيبه كتابًا صغيرًا مهدورًا.

"هذا كتابي، لكنه ليس كتابًا. هو قطعة من نفسي... أو ربما من جنون عاقل".

لاحقًا، دخلت امرأة أخرى، تحمل بيدها كوبًا من القهوة.

"أنا ناديا".

نظرت إلى جون بابتسامة نصفها تعاطف، ونصفها تحدي.

"تكتب كثيرًا عن اللامعنى، لكن هل جربت أن تعيش اللحظة؟"

جون نظر إليها، مترددًا:

"أعيش، نعم، لكن في مدينةٍ لا معنى لها".

ضحكت ناديا، وقالت:

"المعنى، يا جون، هو رفاهية من يملكون الوقت ليبحثوا عنه".

ألدوس أدار الكتاب بين يديه:

"كلنا هنا نبحث عن ذلك الرفاه، أو على الأقل عن وسيلة للهروب".

قال جون:

"أحيانًا أشعر أنني مجرد ظل، كائنٌ بلا أصل".

نظرت ناديا إليه بحذر:

"الظل هو نفسك التي تخاف أن تعترف بها. هل جربت أن تقبل نفسك كلها؟ حتى ظلامك؟"

جلس جون يتنفس بعمق، وجاء صوت آخر من خلف النافذة.

كان صوتًا خشبيًا، هشًا.

"الوهم هو صديقك وأعديك".

التفتوا جميعًا، فوجدوا فتاة صغيرة تقف في الشارع، ترتدي عباءة قديمة، ووجهها يبدو شاحبًا كأنها خرجت من قصةٍ قديمة.

"أنا إيلين." قالت بصوت ناعم.

"لماذا أنت هنا؟" سألها جون.

"لأريك أن الماضي لا يموت، بل ينتظرك ليُحاسبك".

تنهد الجميع، فدخلت ناديا في نقاش حاد مع إيلين، بينما ألدوس راح يشرح لجون معنى الكلمات التي لم يفهمها.

"كل شخص هنا هو مرآة. أنت ترى فيهم ما ترفض أن تعترف به في نفسك".

جون أغلق عينيه، وأحس بالدوار.

"هل هذا ما كنت أخشاه؟ أن أكون مجرد انعكاس لآلام الآخرين؟"

"أنت أكثر من ذلك، يا جون. أنت من يقرر أي مرآة تعكس".

فتحت عينيه ببطء، ورأى ناديا تبتسم.

"هيا، دعنا نعيش اللحظة. لن نحلّ كل الألغاز اليوم، وربما لا نحلها أبدًا".

جلس الجميع حول طاولة صغيرة في المقهى، بدأت حواراتهم تأخذ مسارات مختلفة: عن الحرية، عن العدم، عن الحب كخيال مُستحيل، وعن الذكاء الذي لا يُشبع الجوع.

كان جون يستمع، يكتب، يقرأ بين الكلمات ما لم يُقال.

كان يعلم أن هذا اللقاء ليس صدفة، بل فصل جديد في روايته التي تكتب نفسها بيده، وبيد قوى أخرى.

كتب في دفتره:

"ربما الحقيقة ليست في البحث عنها، بل في قبول أننا نحيا داخل دائرة من الأسئلة التي لا تنتهي".

أغمض عينيه، وابتسم.

كان يدرك أخيرًا أنه ليس وحده في هذه المعركة.

وأن لكل ظل ضوء، حتى وإن كان باهتًا... حتى وإن كان كاذبًا.

بينما كانت الأصوات تتداخل في المقهى، أخذ النقاش يزداد عمقًا، وتبدلت الوجوه من مجرد حاضرين إلى رموز تعكس تناقضات جون الداخلية.

قالت ناديا:

"جون، لا يمكنك أن تهرب من نفسك. كل محاولة هروب هي في الحقيقة رحلة للعودة، أعمق مما كنت تتخيل".

ألدوس أضاف بصرامة:

"والحرية؟ الحرية ليست إلا عبء. إذن، هل أنت مستعد لتحمل عبء أن تكون حراً في عالم لا معنى له؟"

ابتسم جون وقال:

"ربما الحرية الحقيقية ليست أن تختار، بل أن تقبل ما لا يمكنك تغييره".

فجأة، قطعت إيلين الصمت بحسرة:

"لكن ماذا عن الألم؟ هل يجب علينا قبوله أيضًا؟ أم أن نقاومه؟"

نظر الجميع إليها، وكانت ناديا أول من ردّ:

"الألم هو المعلم الأعظم، جون. هو الذي يفتح لنا أبواب الوعي التي يغلقها لنا السكون".

قال جون:

"أنا أكتب كي أفهم الألم، لكنه يهرب مني كالدخان".

ألدوس تنهد:

"الألم لا يُفهم، بل يُعاش. والكتابة ليست إلا محاولة لاستعارة تجربة الحياة، لكنها لا تستطيع احتوائها بالكامل".

ناديا:

"هل تعلم، جون، أن بعض الحكايات لا تُروى بالكلمات؟ بل بالصمت؟"

ساد هدوء ثقيل لبرهة، كأن الزمن توقف ليستمع إلى هذا الصمت.

ثم قالت إيلين بنبرة حزينة:

"أنا هنا لأذكرك بأن الماضي ليس سوى جزء منك، لا أن تحكم عليه، بل أن تحمله كجسد غائب".

قال جون بتردد:

"وأين أجد السلام في كل هذا الضجيج؟"

نظر إليه ألدوس:

"في إدراك أنك لست وحدك في هذا الضجيج".

نظرت ناديا إليه بعينين تحملان وعودًا غير معلنة:

"ربما السلام لا يأتي من الخارج، بل من القبول العميق للذات، بكل أجزائها".

كتب جون في دفتره ببطء:

"المدينة ليست مكانًا، بل حالة. وأنا، في كل لحظة، أُعيد كتابتها".

خرجوا جميعًا من المقهى، كلٌ منهم يعود إلى ظله، لكن مع شعور جديد بأن اللحظة، رغم هشاشتها، كانت حقيقية... وأن هذا اللقاء ربما كان بداية لفهم لم يكن متاحًا من قبل.

نظر جون إلى السماء، التي بدت أقل رمادية، وكأنّ هناك شقًّا ضيقًّا يمرّ منه ضوء ضعيف لكنه ثابت، يُعلن عن إمكانية الخروج من دائرة اللامعنى.

الفصل التاسع :انـهيار البنى

كانت المدينة تغرق في ضبابٍ كثيف، يلفّ كل شيء كأنه يحجب الحقيقة أكثر مما يكشفها.

عاد جون إلى غرفته بعد اللقاء الأخير، لكن البيت بدا مختلفًا، كما لو أن جدرانه تهمس بأسرارٍ قديمة لا يريد أن يسمعها.

وضع دفتره على الطاولة، فتحه ببطء، لكنه لم يجد الصفحة الأخيرة التي كتبها. بل كانت هناك صفحة جديدة، بخط غريب، لا يشبه خطه، تقول:

"كلما تعمّقت في البحث، تزداد الفجوة التي بينك وبين نفسك".

سمع صوت طرق عنيف على الباب.

"جون! افتح الباب، إنني قادم لإنقاذك"!

كان صوت ميراي. لكن ليس بصوتها الهادئ، بل متوترًا، فيه استغاثة.

فتح الباب، دخلت مسرعة، عيناها تحملان ظلال خوفٍ غير مفهومة.

"هناك من يراقبك... ليس فقط في المدينة، بل في كل مكان تكتب فيه".

جلس جون مذهولًا.

"مَن؟"

"لا أعلم بالضبط. لكنني شعرت بهم... كما لو أن أفكارك لم تعد ملكك، بل أصبحت ورقة في لعبة كبيرة".

بدأ قلب جون ينبض بسرعة، لم يكن الخوف وحده، بل شعور بانتفاضة داخله، استيقاظ قوى كانت كامنة.

فجأة، انطفأ الضوء، وحلّ الظلام الحالك.

في ذلك الظلام، سمع صوتًا خافتًا، يهمس باسمه.

"جون... أنت لم تعد تكتب فقط، بل تعيش في النص".

تحركت الظلال في الغرفة، وتحولت إلى أشكال لا تُرى بوضوح، لكنها كانت واقعية بشكل مخيف.

"ألن تهرب؟" همس الصوت مرة أخرى، صارخًا هذه المرة.

وجد جون نفسه في مواجهة نسخة أخرى من نفسه، لكن هذه النسخة كانت مليئة بالغضب واليأس، متشحّة بعباءة سوداء.

"أنا الظل الذي أردت إنكاره. الآن جاء الوقت لأن تحررني".

اشتعل التوتر بينهما، كان صراعًا داخليًا صارخًا، بين الإنسان الذي يريد السلام والظل الذي يريد الفوضى.

في تلك اللحظة، دخل ألدوس وغرفة جون، وقال بصرامة:

"هذا هو الاختبار الحقيقي، جون. هل أنت مستعد لتواجه نفسك كما هي؟ لا كما تتمنى؟"

بدأ الصراع يتصاعد، لكن ميراي وناديا جاءتا أيضًا، وقفتا بجانبه.

"لن تتركك تواجه هذا وحدك." قالت ناديا.

"الانهيار هو بداية إعادة البناء." قالت ميراي بهدوء.

أدرك جون أن هذه اللحظة كانت نقطة التحول، نقطة لا رجعة بعدها.

مع كل كلمة، مع كل نفس، بدأ الظل يتلاشى، ولم يبقَ سوى جون، حقيقته، بكل تعقيدها وهشاشتها.

جلس بعدها بهدوء، فتح دفتره، وكتب:

"لقد انهارت كل بُنى في داخلي... لكنني لم أعد خائفًا. لأنني وجدت في الانهيار بدايةً جديدة".

ارتسمت على وجهه ابتسامة متعبة، لكنها صادقة، ابتسامة رجل عرف أن طريق البحث لا ينتهي، لكنه قرر المضي فيه، مهما كانت العواصف.

بقيت الغرفة غارقة في ظلالٍ شاحبة، رغم عودة النور...
لم يكن ذلك الضوء من المصباح، بل من داخل جون نفسه، كأنّ شيئًا فيه استيقظ بعد صراعٍ طويل، شيء لم يُخلق ليكون مطمئنًا، بل ليظل يقظًا.

جلس الجميع صامتين. كانت ناديا تحدق في الأرض، بينما ألدوس يرتّب أوراقه بصمت، وكأنه يهيّئ شيئًا.
أما ميراي فكانت تنظر إلى جون بتمعّن، ليس كصديقة، بل كعالمةٍ تراقب تحول مادة نادرة.

قال جون بعد دقائق من الصمت:

"الظل الذي واجهته لم يكن عدوّي. كان الجزء الذي أنكرته لأنني لم أتحمل هشاشته".

ألدوس هزّ رأسه، كأنه موافق على ما يعرفه مسبقًا:

"كل إنسان يحمل ظله كما يحمل صوته. لا أحد ينجو منه، لكن القوي هو من ينظر إليه في العيون".

سألت ناديا بهدوء:

"هل شعرت أنه انتهى؟"

"لا." أجاب جون بثقة غريبة، "بل شعرت أنه عاد إلى مكانه الطبيعي. داخلي. لا على وجهي، ولا في يدي".

تنهدت ميراي:

"الآن فقط، تبدأ المرحلة الأصعب. ما بعد المواجهة ليس سهلاً. من ينجو من الصدمة، يدخل مرحلة إعادة بناء النفس. وأحيانًا، لا يعرف ماذا يريد أن يبني".

صمت الجميع، قبل أن يقول ألدوس ببطء:

"ولأجل هذا، علينا أن نغادر المدينة".

رفع الجميع رؤوسهم نحوه.

"ماذا تعني؟" سأل جون.

"أعني ما أقول. هذه المدينة لم تعد صالحة لبحثك. كل ما فيها تكرّر. حتى أوجاعها صارت مألوفة، وجراحها فقدت قوتها. إن أردت أن تستمر في الكتابة والنجاة، فعليك أن تنتقل... إلى مكان لم تعرفه بعد، ولم تعرف نفسك فيه بعد".

وقفت ميراي، وقالت بلهجة ناعمة:

"أعرف مكانًا... ليس جغرافيًا، بل رمزيًا. مكان لا تصل إليه الأقدام، بل الفكرة".

"وأين هو؟"

"في داخل روايتك القادمة".

أدرك جون فجأة ما تعنيه:

ليس المقصود أن يغادر المدينة فعليًا... بل أن يبدأ كتابة رواية جديدة، مختلفة تمامًا. رواية يكون فيها هو الراوي والبطل، لكن ليس وحده...

رواية يدخلها ألدوس كمعلّم، ناديا كمشاعر مضادة، ميراي كمرآة، والظل كرفيق طريق.

مدّ يده إلى الدفتر، وقلب الصفحة.

على الصفحة البيضاء، كتب بخطٍ ثابت:

"الفصل العاشر: الطريق إلى لا اسم له".

نظر إلى الثلاثة وقال:

"لن أبقى هنا. وسأكتب روايةً لا يكون فيها أحد مكررًا، ولا سؤال بلا ألم".

ابتسمت ناديا ابتسامة شفقةٍ وفضول، وقالت:

"هيا إذًا. لنبدأ من اللامكان".

الفصل العاشر :الطريق إلى لا اسم له

"كل بداية حقيقية لا تُشبه ما قبلها، وكل طريق حقيقي لا يحمل لافتة".

بهذه العبارة، بدأ جون كتابة الفصل العاشر من روايته الجديدة، وهو يعلم في أعماقه أن الكلمات لم تعد مجرّد حروف على الورق، بل شقوقًا في جدار الواقع، تسمح لما هو داخله أن يفيض.

لم يكن يدري إن كانت هذه الرحلة حقيقية، أم أنها حلم طويل بدأ منذ أن رفع قلمه لأول مرة. لكنه قرر أن يخوضها.

خرج من المدينة مع ألدوس، ناديا، وميراي. لم يحملوا أمتعة، فقط دفاتر وأفكار، وبعض الأسئلة التي لا إجابات لها. كانت الأرض تمتد أمامهم كأنها حبر جاف بانتظار من يعيد إليه رطوبته الأولى.

الطريق كان مجهولًا. لا خريطة، لا اتجاه. فقط أصوات الريح، وأحيانًا صوت داخلي يهمس لجون:

"أنت لا تمشي إلى الأمام، بل تغوص في العمق".

كانت ناديا أول من كسر الصمت، قالت وهي تنظر إلى الأفق:

"هل تظنون أننا سنصل؟"

ألدوس ردّ بصوته المتعب العميق:

"الوصول فكرة مستعارة من الخرائط. أما نحن، فنسير داخل أنفسنا، لا نحو نقطة محددة".

ابتسمت ميراي ابتسامة خفيفة، ثم قالت:

"جون... هل تعرف لماذا أنت بيننا؟"

نظر إليها بصمت.

"لأنك الوحيد الذي لم يعترف بعد بما يؤلمه".

في لحظة صامتة، شعر جون كأن الريح توقفت عن النفخ. كأنها تنتظر منه إجابة لم تُكتب بعد.

واصلوا السير بين أشجار غريبة الشكل، لها أغصان تنمو نحو الداخل. وكأن الطبيعة في هذا المكان لا تنفتح، بل تنكمش.

مرّوا على جدار مائل، مكتوب عليه بخط باهت:

"كل ما تراه هو انعكاس، حتى الألم".

قال ألدوس:

"هنا تبدأ اختبارات الطريق. لن تُسأل عنها، بل ستُجرّبها".

فجأة، تغيّرت الأرض من تراب إلى مرآة. صارت خطواتهم تنعكس، لكنها ليست خطواتهم، بل خطوات لشخصيات لا يعرفونها. وجوه مألوفة من الماضي، وظلال من المستقبل.

ناديا توقفت، وهمست:

"أرى والدتي. لكنها لم تكن هكذا... لماذا تظهر هنا؟"

قال ألدوس:

"هذا ليس والدكِ، بل ذاكرتكِ عنه".

أما جون، فقد رأى صبيًا صغيرًا يقف في زاوية الانعكاس، يحمل دفترًا بيد واحدة، ويعض على شفتيه، كما كان يفعل وهو صغير حين يخشى أن ينهار.

اقترب منه، لكن الصبي لم يتحرك. فقط رفع الورقة، وقد كُتب عليها:

"أنت خذلتني حين قررت أن تكبر بدون أن تفهمني".

هز جون رأسه، كأنّه لا يريد الاعتراف.

"هذا لا يمكن أن يكون حقيقيًّا".

قالت ميراي:

"بل هو الجزء الوحيد الحقيقي في هذه الرحلة".

أغلق جون عينيه، ثم فتحهما فاختفت المرآة.

قال ألدوس:

"الاختبار الأول انتهى. لقد بدأت بالتذكّر".

جلسوا حول نار صغيرة أشعلها ألدوس. كل منهم التقط عودًا وأشعل طرفه، وكأنهم يضيئون شيئًا رمزيًا داخلهم.

سألت ناديا جون:

"ما الذي كنت تهرب منه طوال حياتك؟"

تردد، ثم أجاب:

"من الصدق. من لحظة أقول فيها: لا أعرف من أنا".

ضحكت ميراي:

"ذلك ليس ضعفًا، بل شجاعة. الضعيف هو من يصطنع تعريفًا ليرتاح".

رفع ألدوس صوته:

"الرحلة لا تزال طويلة. ما مررنا به اليوم ليس سوى عتبة صغيرة. الطريق القادم أصعب".

سأل جون:

"هل نُكمل غدًا؟"

ردت ناديا:

"الوقت هنا لا يُقاس بالغد. بل بالتحوّل".

وبينما أطفأوا النار، قال جون بصوت خافت، كأنه يقرأ من داخله:

"أنا لا أريد أن أكتب رواية جديدة فقط... بل أريد أن أكتبني".

ثم ساد صمت طويل، فقط تنفّسهم، ورائحة الخشب المحترق، وسماء تتهيّأ لولادة حُلمٍ جديد.

وفي عمق تلك الليلة، بينما كانت العيون تغفو والأفكار تنساب، بقي جون مستيقظًا. سحب دفتره، وبدأ يكتب:

"الفكرة ليست أن تهرب من الظل، بل أن تجلس معه إلى الطاولة نفسها وتقول له: أنا أراك".

خطوات الليل كانت بطيئة، والنجوم تتحرك كما لو أنها تعيد رسم خارطة داخلية. وفي تلك اللحظة، سمع صوتًا خافتًا في أذنه. لم يكن من أحد رفاقه.

كان الصوت يقول:

"اقتربنا من العتبة الثانية. إن تجاوزتها، لن تعود كما كنت".

ولم يكن الصوت تهديدًا، بل وعدًا.

أغلق دفتره، ووضعه تحت رأسه، كوسادة من ورق، ونام، للمرة الأولى منذ سنوات، دون أن يخشى أن يرى نفسه في الحلم.

ولم يكن يدري أن الأحلام، هذه الليلة، لن تكون مرآة الماضي، بل نوافذ إلى احتمالات أخرى.

استيقظ قبل الفجر، على نبض غريب في قلبه، كأن شيئًا يستدعيه من الخارج. خرج بخطوات بطيئة، متتبعًا الضوء الباهت للشفق الأول، فرأى في المسافة شكلًا غريبًا، بين شجرة ونار، كأنّه هو... لكنه ليس هو.

كان ذلك الظل الذي رآه في المرآة، جالسًا ينتظره.

اقترب منه جون، وقال:

"لماذا عدت؟"

ردّ الظل:

"لأني لم أغادر. أنت من تحرّك بعيدًا عني".

جلسا مقابل بعضهما البعض.

"هل تريد أن نتصالح؟" سأل جون.

"لا. أريد أن تدمجني. أن تكفّ عن فصلي عنك".

في تلك اللحظة، سمع أصوات ناديا وميراي تقتربان، لكنهما لم ترياه. وكأن الظل لا يُرى إلا حين يكون جون وحده تمامًا.

نظر إليه جون طويلًا، ثم همس:

"أنا أراك".

وحين قالها، اختفى الظل، ليس هاربًا، بل ذائبًا في جسده.

وعرف جون، أخيرًا، أن الطريق إلى "لا اسم له طريق الصمت "... هو الطريق إليه هو نفسه، بشجاعته، بخوفه، بطفله القديم، وبرجل لم يعد يخشى أن يكتب من دمه.

وهكذا بدأ اليوم الثاني من الرحلة.

الفصل الحادي عشر :داخل الغابة التي تشبه الذاكرة

لم تكن الغابة التي دخلها جون ومن معه غابةً بالمعنى المألوف. لم تكن أشجارها تُلامس السماء، بل تنحني نحو الأرض، كما لو أنها تحاول سماع ما لا يُقال. كل ورقة تسقط فيها، كانت تُصدر صدىً كأنها كلمة طُويت من كتاب لم يُقرأ بعد.

ألدوس تقدمهم كدليل، لكن خطواته لم تكن واثقة كالسابق، بل مترددة، كأنه يسير في أرض لا يثق بها. أما ميراي فكانت تهمس لنفسها بلغة لا يفهمها أحد، وكأنها تستدعي ذاكرة مفقودة. وناديا؟ كانت أكثرهم صمتًا. عيناها تبحثان بين الأغصان عن شيء، أو ربما شخص.

قال جون بعد صمت طويل:

"هذه الغابة... تشبه أحلامي القديمة".

رد ألدوس بصوت خافت:

"لأنها من هناك. الغابة التي ندخلها الآن ليست مكانًا... بل تكرارًا داخليًّا لكل ما نُسي وقاوم النسيان".

كان كل ما حولهم يتحرك ببطء، كأن الزمن نفسه فقد إيمانه بالتقدم. مرّوا على شجرة محفور على جذعها:
"هنا دفنت أول خوف".

نظر جون إلى النقش، ثم وضع يده على الجذع، فاهتز قلبه كما لو لُمس من الداخل. تذكّر تلك الليلة في صغره، حين اختبأ خلف خزانة خشبية لأنه خاف من صوت في الخارج. لم يكن الصوت حقيقيًّا، بل خياله.

قالت ناديا فجأة:

"كل واحد فينا سيمر أمام شجرة تخصّه".

همس جون:

"ومتى نعرف أنها تخصنا؟"

قالت ميراي:

"حين ترتجف دون أن تعرف السبب".

تابعوا سيرهم حتى وجدوا كوخًا صغيرًا وسط الغابة. لم يكن مأهولًا، لكن النار كانت مشتعلة في موقده. جلسوا داخله، وأحسوا أن جدرانه تسمعهم.

قال ألدوس:

"كل من يدخل هذا المكان، عليه أن يعترف بشيء لم يقله من قبل".

التفت الجميع إلى جون، وكأن دوره قد حان. شعر بثقل في صدره، ثم قال:

"في كل مرة كنت أكتب، كنت أهرب من شيء واحد: خوفي من أن أكون لا شيء... أن أكتب كل هذه الصفحات، وفي النهاية، لا يعرفني أحد".

ساد الصمت.

ثم قالت ناديا:

"أنا كنت أخشى أن أُحبّ شخصًا لا يراني".

قالت ميراي:

"وأنا كنت أخشى أن أكون مجرد عقل، بلا قلب".

أما ألدوس، فتمتم:

"أنا خفت أن أكون معلّمًا، لا يسير في الطريق الذي يُعلّمه".

عندها، اهتز الكوخ، كأن الأرض نفسها استجابت لصدقهم.

ثم خرجوا، وبدأت الأشجار تفسح الطريق.
الضوء الذي كان غائبًا بدأ يتسلّل، وكأن شيئًا قد فُتح.
ليس بابًا، بل بابًا داخليًّا، كان مغلقًا لسنوات.

حين خرجوا من الكوخ، لم تكن الغابة كما كانت. كان كل شيء فيها قد تغيّر بصمت. لم تُصدر الأشجار صريرًا، ولم تُحرك الرياح أوراقها. ومع ذلك، شعروا أنهم لم يعودوا ذات الأشخاص.

جون مشى في المقدمة هذه المرة. لم يعد يتردد كما فعل من قبل. كان في داخله يقين جديد، لكنه هشّ، كأن روحه ولدت للتو وتخشى أن تسقط من أول ريح.

على حافة جدول ماء صغير، جلسوا ليرتاحوا. الماء كان صافيًا، لكن كل من نظر فيه لم يرَ وجهه... بل وجوه الآخرين.

جون رأى والده، يبتسم بعينين متعبتين، لم يكن يتذكّر تلك النظرة في حياته، لكنها كانت هناك، في الماء.

ناديا رأت أختها التي لم تولد، كانت تعرف بوجودها منذ الصغر من نظرة حزن غامض في عين والدتها.

ميراي رأت نفسها، لكن بعينين خاليتين من الفكر، امرأة تنظر إلى السماء وتضحك كأنها لا تخشى شيئًا.

أما ألدوس، فبكى. لم يقل لماذا، ولم يسأله أحد. لكن دموعه كانت أصدق من أي اعتراف.

قالت ميراي بعد صمت طويل:

"أحيانًا، نحتاج أن نرى من كنا، لنفهم من أصبحنا".

ردت ناديا:

"ومن سنصير أيضًا".

همس جون:

"ربما... هذه الغابة ليست اختبارًا، بل انعكاسًا. إنها تطابق داخلي في شكل خارجي".

قال ألدوس، كأنه يخاطب نفسه:

"وما يعكسه الخارج... يمكنه أيضًا أن يشفي الداخل".

واصلوا السير، إلى أن وصلوا إلى ساحة دائرية وسط الغابة، فيها أربعة كراسي خشبية متقابلة، وفي الوسط مرآة مغطاة بقماش أسود.
قال ألدوس:

"هذا هو مركز الغابة. هنا فقط يُسمح لك برؤية حقيقتك. لكنك لن ترى إلا إذا كنت مستعدًا... ليس للحقيقة، بل لألم الحقيقة".

سأل جون:

"وإن لم أكن؟ "

رد ألدوس:

"سترى فقط صورتك، لا ذاتك".

جلس الأربعة. ساد صمت لم يكسره سوى نبضات القلب. ثم نهض جون وسحب القماش.

كانت المرآة مظلمة في البداية... ثم بدأت تتضح فيها صورة شيء يتحرك.

لم يرَ وجهه. رأى المشاهد التي لم يرد أن يتذكّرها:
لحظة كذب فيها على صديقه، يوم نسي فيه أن يعود لأمه في المستشفى، الليالي التي كتب فيها عن الشجاعة وهو يرتعش من الخوف.

أغلق عينيه. ثم فتحهما، وقال:

"أنا أقبل هذا. هذه صورتي، لا مجدي. لكنها أنا".

حينها، تحوّلت صورة المرآة، وظهرت عينا جون، للمرة الأولى، كما هما.

قال ألدوس بهدوء:

"لقد مررنا من الغابة. الآن... علينا أن نواجه المدينة التي تنتظرنا".

"أي مدينة؟" سألت ناديا.

قال ميراي وهي تنهض:

"المدينة التي تركناها وراءنا، لكنّها لم تتركنا من داخلنا".

ابتسم جون ابتسامة صغيرة، لأول مرة دون قناع.

"لنعد إذًا. لكن هذه المرة... لست أنا الهارب، بل العائد".

الفصل الثاني عشر :المدينة التي لا تُشبه نفسها

لم تكن المدينة كما تركوها. حين عادوا إليها بعد أيام في الغابة، بدت مألوفة من الخارج، لكنها مشوهة في الداخل. كانت الشوارع نفسها، البيوت نفسها، الأصوات نفسها... لكنّ شيئًا عميقًا تغير.

جون شعر بذلك أولًا. دخل الميدان الذي طالما جلس فيه في شبابه، لكن المقاعد كانت خالية من الذكريات، وكأنها فقدت قدرتها على التذكّر.

قالت ناديا:

"هل نحن تغيّرنا، أم أن المدينة ماتت قليلًا حين غادرناها؟"

رد ألدوس دون أن ينظر إليها:

"المدن لا تموت. لكنها تنكمش حين لا يفهمها أبناؤها. وتتمدد فقط في صدور العائدين المختلفين".

وقفوا أمام منزل جون القديم. الباب كما هو، لكنه لم يعد بابًا، بل حدًّا رمزيًّا بين من كأنه، ومن صار عليه أن يكون.

قال جون:

"أخشى أن أدخل. أخشى ألا أجد شيئًا. أو أن أجد كل شيء ولم أعد قادرًا على تحمّله".

قالت ميراي بلطف:

"لا أحد يعبر الباب ليجد الأشياء كما تركها... بل ليعرف كيف يراها من جديد".

دخل. كان المكان مظلمًا، لكن الضوء كان يتسرّب من زوايا لم تكن موجودة من قبل. كل شيء يبدو أصغر. سريره، كتبه، صورته القديمة.

وقف أمام مرآة الحائط... ورأى نفسه كما لم يرَه من قبل: رجل لا يحمل الأجوبة، لكنه لم يعد يخاف من الأسئلة.

جلس على سريره. مرّت في ذهنه أصداء، ليس لأصوات الآخرين، بل لصوته هو... ذاك الذي كبته طويلاً.

"أنا من اخترت أن أكون ظلًّا للآخرين كي يحبوني. والآن أريد أن أحب نفسي، حتى لو خسرت الجميع".

سمع صوت أمه من الذاكرة:

"كن كما أنت يا بني، فالعالم لا يحب الحقيقة، لكنه يحترمها إذا استمرت في الصمود".

دمعت عيناه.

عاد للخارج. كانت الشمس تغيب، لكن المدينة بدت أكثر إشراقًا.
ناديا كانت تنظر إلى السماء، ألدوس يدخّن بلا استعجال، وميراي تغني لحنًا قديمًا من دون كلمات.

قال جون:

"هل هذا هو ما كنا نبحث عنه؟ "
قال ألدوس:

"ليس جوابًا، بل استعدادًا لحياة بأسئلة لا تنتهي".

قالت ناديا:

"نحن لم نعد كما كنا. حتى لو عدنا إلى حيث كنا".

قالت ميراي:

"ولعل هذا كافٍ لنبدأ من جديد... لا لنكرر، بل لنخلق".

ومع حلول الليل، لم تكن المدينة نائمة، بل كأنها تهمس لكل من مرّ بتجربة التحوّل:

"مرحبًا بك. لا أحد يعود كما كان. لكنّك، هذه المرة، تحمل مفتاحك لا قيدك".

في اليوم التالي، تجوّل جون وحده في الأزقة القديمة. كان كل حجر يعرفه، لكنّ الشعور داخله غريب، كأن المدينة ليست مجرد مكان، بل اختبار طويل للوعي.

وقف أمام المكتبة الصغيرة التي اعتاد الجلوس فيها، فوجدها مغلقة. على الباب ورقة مكتوبة بخط رفيع:

"لا نفتح إلا لمن يعرف ما لا يريد أن يقرأ".

ابتسم. لقد تغيّرت كل القواعد.

جلس على الدرج المجاور وفتح دفتراً كان يحمله معه منذ الغابة. كتب:

"المدينة ليست المكان، بل ما نقوله لأنفسنا حين نكون فيه. وإن صمتنا... تكلمت الشوارع عنا".

قطع تأمله صوت خطوات. كانت ناديا، تمشي نحوه ببطء، كأنّها تشارك المدينة في طريقتها بالمشي.
جلست إلى جانبه.

قالت:

"أشعر وكأنني لا أنتمي هنا، رغم أن كل شيء حولي يحمل وجهي القديم".

رد جون:

"لأننا لم نعد نبحث عن الأماكن التي تُشبهنا... بل التي تُعيدنا إلينا".

نظرت إليه بصمت طويل. ثم سألت:

"هل تظن أننا اكتملنا؟"

ضحك، لكنها لم تكن ضحكة خفيفة، بل ضحكة رجل فهم للمرة الأولى أن النقص ليس عيبًا.

"أنا لم أعد أبحث عن الاكتمال. بل عن الصدق في أن أكون ما أنا عليه، حتى لو كنت غير مكتمل".

وصل ألدوس وميراي. جلسوا جميعًا كأنّهم طلاب في درس غير رسمي.

قال ألدوس:

"أتدرون؟ لقد فهمت شيئًا الليلة الماضية... الغابة كانت ولادة جديدة، لكن المدينة، هي طفولتنا التي علينا أن نربّيها من جديد".

قالت ميراي:

"ولذلك يجب ألا نغادرها... بل نعيد كتابتها".

قال جون:

"كيف؟ بالكلمات؟ بالأفعال؟ أم بالصمت؟"

ردت ناديا:

"ربما بكل ذلك. وربما فقط بالحضور. أن نبقى هنا، لا لننقذها... بل لنكون معها".

صمت الأربعة، ثم قرروا أن لا يغادروا المدينة.
كل منهم استأجر غرفة في شارع مختلف، ليس ليتفرقوا، بل ليتجذروا.

جون اختار غرفة تطل على الساحة القديمة. كل صباح، كان يفتح النافذة ويخاطب المدينة كأنها كائن حي:

"أنا هنا، أكتبك كما لم تكتبي نفسك من قبل".

كتب رواية جديدة، ليست عن أبطال أو حب أو خيانة، بل عن رجل فقير عاد إلى المدينة التي كانت مرآته، ليفهم أن الفقر الحقيقي هو في أن تهرب من ظلك.

وفي الصفحة الأولى كتب:

"إلى كل من عاد من غابته... لا لتخبر الناس بما رأى، بل ليصغي لما لم يعد يُقال".

الفصل الثالث عشر :ظل الزائر

بعد أن كتب جون في دفتره عن الظل، لم يكن يعلم أنه قد استدعاه بالفعل. في الليلة التالية، وبينما كان الصمت يسكن المدينة، دخل الظل غرفته...

ظهر لأول مرة في غرفته، مكانٌ كان معتادًا على السلام والكتابة، لكن تلك الليلة تحوّل إلى مسرح مواجهة مع الجانب المظلم من ذاته.

ظلٌ لا يُرى بالعين مباشرة، بل يُحسُّ ببرودته، همسه، ونبضه الخفي.

قال الظل بصوتٍ كأنه يصدر من عمق الجحيم:

"أنا لا أطلب منك الهروب أو الإنكار. أنا دعوتك للمصارحة. هل أنت مستعد لأن تواجهني؟"

صُعق جون لكنه لم يستطع الهروب.
تقدّم ألدوس وميراي، وقفت ناديا في الباب، لكنّ الظل لم يكن مجرد عدوّ، بل اختبار.

في تلك الليلة، بدأ جون رحلة جديدة رحلة مواجهة الذات التي لم يرغب أن يعرفها، لكنها كانت تنتظره في أعماق روحه.

كان الظل يتلوى في زوايا الغرفة، يوسّع حدود وجوده كأنه كيان حيّ ينمو مع كل تخبّط في النفس. صوته كان يرنّ في أذني جون، موجعًا ومغريًا في آن معًا:

"أنت تحاول أن تكتب عن النور، لكنك تخاف الظلام. أنا ذاك الذي تخفيه خلف ابتسامتك، خلف كلماتك، خلف كل سطر كتبته"...

أغلق جون دفتره بعنف، محاولًا أن يصدّ ذلك الصوت. لكنه أدرك، بمرارة، أن الهروب لم يعد خيارًا.

دخل ألدوس بغرفة جون، وجهه صارم لكن عينيه تحملان نوعًا من التحدي:

"لن نتركه يبتلعك يا جون. نحن هنا لنثبت أنك أكثر من مجرد ظلك" .

أمسكت ميراي بيد جون بحنان:

"كلنا لدينا ظلال، لكن ليس كلنا نستطيع أن نواجهها. أنت لست وحدك" .

بدأ الظل يتكثف، يأخذ شكلًا بشريًا لكن مشوهًا، عينيه سوداء كعمق الليل، وصوت أنفاسه كأنها رياح عاصفة:

"أنا ماضيك، مخاوفك، أصدقاؤك الذين تخذلتهم، كلمات لم تُقل، دموع لم تُبكِ" ...

وقف جون بثبات، رغم الخوف المتسلل إلى صدره، وقال:

"نعم، أنت أنا... ولن أهرب بعد الآن. سأكتبك، سأحتضنك، لأكون حرًا" .

اختفى الظل تدريجيًا، تاركًا خلفه هدوءًا مريبًا، لكنه هدوء الأمل.

في تلك الليلة، بدأ جون فصلًا جديدًا في روايته ليس فقط عن أشخاص، بل عن صراع داخلي، عن الانتصار على الذات.

الفصل الرابع عشر :المدينة التي تنسى أبطالها

في الصباح التالي، بعد ليلة المواجهة مع الظل، خرج جون يتجول بلا هدف. لكنه لم يكن وحيدًا في التيه، فقد شعر رفاقه أيضًا أن المدينة بدأت تخبو، كأنها تفقد ذاكرتها قطعةً قطعة...

وفي الأزقة الضيقة، حيث تصدح أصوات الباعة وهمس الحكايات القديمة، كان هناك فراغ يتسرب بين الحجارة، فراغ لا يُرى لكنه يُحسّ.

قال جون وهو يمشي ببطء:

"المدينة تُنسى، لكنها لا تُنسى نفسها. كل حجر فيها يحمل ذكرى، وكل ذكرى تحمل عبئًا".

نظرت ناديا إلى الأبنية المتداعية وقالت:

"هنا، حيث ولدت أحلامنا، تتلاشى الوجوه التي جعلت الأحلام ممكنة".

توقف ألدوس، ثم قال بصوت هادئ لكنه قوي:

"هذا النسيان هو لعنة المدن التي لا تُعطي أسماءها للذين يحاربون من أجلها".

مروا بجانب مقهى صغير، كان في الماضي ملتقى الأحبة والمفكرين، لكنه اليوم مهجور، تملؤه صدى الذكريات المنسية.

ميراي أمسكت بيد جون وقالت:

"هل يمكن أن تكون المدينة حية، لكنها في ذات الوقت ميتة؟"

ابتسم جون بحزن:

"نعم، لأنها تعيش بين من يذكرها، وتموت بين من ينسى أبطالها".

ثم جلسوا جميعًا على سلم قديم يطل على الساحة الرئيسية، حيث كان الناس يتجمعون ويغنون، لكن اليوم تبدو الساحة خاوية، كما لو أن الحكاية توقفت عند هذا المشهد.

قال جون وهم يلتقط أنفاسه:

"علينا أن نكتب من أجل المدينة، أن نستعيد لها أسماءها، أبطالها، وأحلامها... حتى لا تموت في صمت".

جلس الجميع في صمت، تعلوه أصوات بعيدة غير واضحة، كأن المدينة تهمس لهم بأسرارها المخبأة.

قال ألدوس:

"المدينة ليست فقط مبانٍ وحجارة... هي ذاكرة الجماعة، وعندما تُنسى ذاكرتها، تصبح بلا روح".

نظر جون إلى السماء، حيث تتبدل ألوان الغروب بين الأحمر والبرتقالي، ثم قال:

"هل يمكن للإنسان أن ينسى جذوره؟"

أجابته ناديا:

"لا، لكنه قد ينسى نفسه حين ينكسر رابط الانتماء".

قالت ميراي وهي تنظر إلى الساحة الخالية:

"الأبطال الحقيقيون ليسوا من يخلدهم الناس، بل من يحملون المدينة في قلوبهم، حتى لو نسيتهم".

اقترب جون من جدار قديم مغطى بالكتابات والرسومات، وبدأ يقرأ بصوت خافت:

"في كل حجر هنا، قصة مَن فقدوا ولم تُروَ"...

أحسّ الجميع بثقل الكلمات، وكأن المدينة تطلب منهم أن يكونوا شهودًا على نسيانها.

ثم قال جون وهو يمسح الغبار عن كتاب قديم ويمسكه بيد مرتجفة:

"هذا هو دورنا الآن... أن نكتب، أن نذكر، أن نعيد الحياة إلى ما يبدو ميتًا".

بدأوا جميعًا يتحدثون عن قصص المدينة، عن أناس عاشوا وآمنوا بها، ولم يعد لهم سوى الذكرى.

في تلك اللحظة، تسللت نسمة هواء باردة، وحمل معها صوتًا خافتًا:

"أنتم الأمل الأخير... لا تدعوا المدينة تفقد روحها".

ارتفعت الأصوات، لكنهم عرفوا أن الرسالة ليست فقط لمن يسمعون، بل لمن يؤمنون.

ابتسم جون ووقف قائلاً:

"لن نسمح للمدينة أن تنسى أبطالها. ولن نسمح لأنفسنا أن ننسى من نحن".

الفصل الخامس عشر :الصمت الذي يتكلم

في قلب المدينة التي تعاني من نسيان أبطالها، حيث تختلط الأصوات بالحكايات القديمة، جلس جون وحده في المقهى الصغير الذي يكتظ بالصمت. لم يكن صمتًا عادياً، بل صمتًا ثقيلاً، يزن كلماتٍ لم تُقال، وأفكارًا لم تُنطق.

كانت المدينة تصغي إليه، أو ربما كان هو من يصغي إليها، حيث كل شيء يبدو كأنّه انتظار لا نهاية له.

قال جون في نفسه:

"الصمت هنا ليس غياب الكلام، بل حضور الأعمق من الكلمات".

أخذ يحدق في فنجان قهوته، يرى فيه انعكاسًا مشوشًا، كأنه صورته المحطمة التي لا يريد أن يعترف بها.

وفي اللحظة التي ظن فيها أنه وحيد، دخلت المقهى امرأة غريبة، ترتدي عباءة سوداء، عيناها تحملان قصة لا تنتهي. جلست أمامه دون كلمة، وصمتها كان يملأ المكان.

نظر إليها جون وقال:

"هل أنت جزء من هذا الصمت؟"

ابتسمت المرأة، وقالت بصوت هادئ لكنه قوي:

"الصمت يتكلم دائمًا، لكنه لا ينتظر من يسمعه، بل من يفهمه".

جلسا معًا في صمت مطول، وتبادلوا نظرات وكأن الكلمات ليست ضرورية، لأن الصمت كان أبلغ.

قالت المرأة:

"أحيانًا، يكون الصمت أبلغ من الصراخ. فهو يكشف ما لا يستطيع الكلام قوله، ويخفي ما لا يريد أن يُكشف".

رد جون:

"لكن هل يمكن للصمت أن يكون طريقًا للفهم، أم هو مجرد جدار نحتمي به؟"

ابتسمت المرأة وقالت:

"الصمت هو بداية لكل حوار حقيقي. لكن يجب أن تجرؤ على سماعه، لا فقط كفراغ، بل كصوت".

أدرك جون أن هذه اللحظة هي بداية فصل جديد، ليس في روايته فحسب، بل في حياته.

ظلّ الصمت يلفّ المكان، لكنه لم يكن صمت الفراغ بل صمت الحضور الكامل. شعرت المرأة وكأنها مرآة تنعكس فيها أفكار جون وأسراره المخفية.

قال جون وهو يتأمل في عينيها:

"لطالما خشيت الصمت، لأنه يُجبرني على مواجهة ذاتي، على مواجهة الفراغ الذي أهرب منه".

ردّت المرأة بنبرة هادئة:

"ولكن، ماذا لو كان الصمت هو الجسر الذي يصل بين ما أنت عليه، وما يمكنك أن تكونه؟"

كان في كلامها ما يفتح أبوابًا مغلقة داخل نفسه. بدأت الكلمات تترجم الصمت إلى فهم، والفراغ إلى عمق.

جلسا يتحدثان، ليس بالكلام فقط، بل بنظرات، بإشارات، وحتى بصمتات بين الكلمات.

قالت المرأة:

"في عالم يصرخ فيه الجميع، يكون الصمت المتمرد هو الذي يملك القوة الحقيقية".

تنفّس جون بعمق، وشعر لأول مرة أن الصمت لا يعني الوحدة، بل الانسجام مع الذات.

قال أخيرًا:

"ربما يكون وقت أن أسمع الصمت، لا كتهديد، بل كرفيق".

ابتسمت المرأة، وقالت:

"وهذا هو البداية الحقيقية لكل شيء".

خرجت من المقهى، تاركة وراءها عبقًا من الهدوء والطمأنينة.

جلس جون وحيدًا، لكنّه لم يكن وحيدًا. كان مع نفسه، مع الصمت، مع البداية الجديدة.

الفصل السادس عشر :الرحيل والعودة هدوء ما بعد العاصفة

كانت المدينة تغفو تحت ضوء الغروب الباهت، وكأنها تنتظر حدثًا استثنائيًا. لم يكن مجرد لقاء عابر، بل لحظة مصيرية، حيث تلتقي الأرواح التي جالت بين ظلال الذات وأضواء الوعي.

في الساحة القديمة، حيث تُضاء الحجارة بحمرة الشفق، تجمع جون ونادیا وميراي وألدوس، بعد رحلات كل منهم التي جابت غابات الذاكرة ومدن الألم. لم يكن اللقاء صدفة، بل قدرًا مدبرًا، يجمع بينهم ليروي آخر فصول قصتهم.

جلسوا في دائرة صغيرة، حيث ارتفع صوت الريح بين الأشجار كأنه يلقي عليهم حكمة الزمان، صوت صامت لكنه عميق.

قال جون، صوته هادئ ولكنه مشحون بالعاطفة:

"كم تعبنا في السير، كنا نبحث عن معنى وسط الخراب، عن ضوء في ظلالنا. كل واحد منا كان رحلة بأكملها، رحلة الفقد والإدراك، الحيرة واليقين" .

"لقد عرفنا الخوف، ومواجهة الظلال التي كنا نختبئ خلفها. لكن ما تعلمته هو أن الرحلة ليست فرارًا من الذات، بل استدعاء لها، استدعاء ظلنا، ووجوهنا التي كنا نجهلها".

نظرت ناديا إلى الأفق، تتأمل الألوان المتغيرة في السماء، وقالت:

"لم يكن الحب الذي عرفناه مجرد دفء، بل هو مقاومة. مقاومة أن نكون وحدنا في هذا العالم المتغير. لقد أدركت أن الحب الحقيقي هو رؤية الآخر، مع كل ألمه وضعفه، بدون أقنعة".

تنهد ألدوس، ثم قال بصوتٍ يحمل ثقل التجارب:

"الفكر ليس صندوقًا مغلقًا، بل بحرٌ لا تنتهي مياهه. عشنا بين الأمواج العاتية، ورأينا أنفسنا تائهين، لكن كل موجة علمتنا شيئًا جديدًا عن ذاتنا".

أضافت ميراي، وهي تلملم أوراقها التي كتب عليها بعض خواطرها:

"الصمت كان أصدق معلمي. في صمته، تعلمت أن أسمع نفسي، أسمع الحياة التي كانت تختبئ خلف الضجيج. الصمت ليس فراغًا، بل لغة تتحدث لمن يعرف كيف يصغي".

مرت نسمة هواء باردة، وكأن المدينة تهمس لهم: **"أنتم الذين جئتم لتحملوا قصتي، لتكونوا شهودًا على ضياعي وولاداتي."**

ابتسم جون قائلاً:

"المدينة ليست فقط مكانًا نعيش فيه، بل روحٌ نشاركها، تاريخٌ نكتبه بأفعالنا وأحلامنا. هي ميداننا، مرآتنا، وحتى معركتنا".

تبادلوا النظرات، وكل واحد منهم يحمل في عينيه ثقل الرحلة وأمل البدايات الجديدة.

بعد صمت طويل، قال جون:

"تذكرت حين دخلنا الغابة التي تشبه الذاكرة، كنا خائفين من أن نرى أنفسنا الحقيقية. لكن ما وجدناه كان أعمق من ذلك... وجدنا أن الهروب من الذات هو الهلاك الحقيقي".

نظرت ناديا إليه، وقالت:

"وأنت... ماذا وجدت في ظلك؟"

رد جون بابتسامة حزينة:

"وجدت صديقي القديم. لم يكن ظلاً لي فقط، بل جزءًا مني لم أعترف به من قبل. واليوم، بعد أن احتضنته، أشعر أنني حرّ".

أخذ ألدوس نفسًا عميقًا، وأضاف:

"الظل ليس عدوًا يجب هزيمته، بل معلم يجب أن نتعلم منه. في ظلامنا، تكمن بذور النور".

قالت ميراي:

"وهذا هو سر الحياة، أن لا نحارب الظلام، بل نراه، نحاوره، ونكتشف أنه جزء لا يتجزأ من جمالنا".

همس الريح كأنه يردد كلماتهم، فتراقصت أوراق الأشجار وكأنها تحيي تلك اللحظة الفريدة.

وقف جون ونظر إلى رفاقه، وقال:

"لقد أصبحنا مختلفين، لم نعد شبابًا يهربون من الحياة، بل حراسًا على قصصنا، على المدينة، وعلى أنفسنا".

تقدم نحو النافورة القديمة في وسط الساحة، وأخرج ورقة كتب عليها:

"هذه قصتنا، ليست نهاية، بل بداية كل ما كان يجب أن يكون".

رماها في الماء، فتناثرت الحروف بين الأمواج الصغيرة كأنها تعانق المستقبل.

جلس الجميع حول النافورة، صوت المياه يهمس برقة بين الصمت الثقيل.
كانت تلك اللحظة مزيجًا من وداعٍ وبداية، من ألم وانتصار، من حزن وارتياح.

ناديا مدت يدها ولمست سطح الماء، فقالت:

"كل قطرة هنا تحمل ذكرى، وكل ذكرى تحمل درسًا. لقد تعلمت أن القلب لا ينسى، بل يختار ما يحتفظ به".

نظر إليها جون وقال:

"وهذا الاختيار هو حرية الإنسان الحقيقية، أن يقرر ما يحتفظ به وما يتركه".

تقدم ألدوس، وأخرج من جيبه كتابًا صغيرًا، بترجمة قديمة لكتاب فلسفي كان قد قرأه في شبابه. فتحه على صفحة تحمل حكمة كتبها الفيلسوف:

"الذات التي تخاف من نفسها، تضل الطريق، والذات التي تحب ذاتها بكل عيوبها، تجد السلام".

قال ألدوس:

"كنت أعتقد أن الحكمة تكمن في المعرفة، لكني اليوم أعرف أنها في القبول".

ابتسمت ميراي وقالت:

"القبول لا يعني الاستسلام، بل هو بداية التغيير الحقيقي".

سكتوا جميعًا، وتراءت أمام أعينهم صور من الماضي:

لحظات الفرح التي كانوا يظنونها ستدوم إلى الأبد،

والآلام التي تجرعوا مرارتها بصمت،

والخيبات التي أشعلت فيهم شعلة المثابرة.

جون استدار نحو المدينة، وقال:

"هذه المدينة التي ظنناها بلا قلب، هي في الحقيقة مرآتنا. كل شارع فيها يعكس حالة نفوسنا. كل نافذة تحكي قصة منّا".

نظرت ناديا إلى السماء وقالت:

"ربما كان علينا أن نرحل لنعرف كيف نعود، لنعرف كيف نحب هذا المكان، وكيف نحب أنفسنا".

أضاف ألدوس:

"ولأننا عدنا، لا يمكننا أن نكون كما كنا، بل علينا أن نكون أفضل".

ابتسمت ميراي وهي تنظر إلى أصدقائها، وقالت:

"سنكتب هذه المدينة، وسنكتب أنفسنا، ولن نترك للصمت أن يكون سوى بداية".

تبادلوا نظرات الوداع، لكن في أعينهم كان هناك وعد:
أن لا ينسوا، وأن لا يهربوا، وأن يقبلوا الظل والنور معًا.

في تلك اللحظة، أخذ جون نفسًا عميقًا، وقال:

"أدركت أن الحياة ليست سوى سلسلة من اللقاءات والوداعات، من الأفكار والأحلام، من الظلال والنور.
ولن تكون النهاية سوى بداية أخرى".

ابتسم الجميع، وشعروا بأنهم يحملون معهم شيئًا جديدًا، شيئًا يجعل المدينة والرحلة تستحقان العناء.

مع انطفاء الشفق، ارتفع صوت الريح بين الأشجار، كأنها تهمس لهم:

"اذهبوا، وكونوا قصصًا تُروى، وحكمًا تُعاش".

جلس الجميع في هدوء، والمدينة من حولهم تنبض بهدوء غامض، وكأنها تحتضن لحظة الفراق واللقاء في آنٍ معًا.

قال جون، بصوت منخفض لكنه ملؤه الإيمان:

"كل رحلة تبدأ بخطوة، وكل حياة تحمل بين تفاصيلها أسئلة لا نهاية لها. نحن هنا، في هذه اللحظة، لا لنجد أجوبة نهائية، بل لنقبل أن لا وجود لها".

نظرت ناديا إليه بعينين تلمعان، وقالت:

"القبول هو فعل شجاع، شجاعة أن تعيش في عالم يتقلب بين اليقين والشك، بين الحب والخوف".

أضاف ألدوس:

"في صمتنا، اكتشفنا أن الحقيقة ليست خارجة عنا، بل داخلنا. أن نواجه الظل هو أن نلتقي بالنور".

تنهدت ميراي، وقالت:

"وهذا هو سر الحياة أن نكون رحلة مستمرة، نكتب فيها فصولًا من التغيير، ونعانق فيها كل لحظة، بكل ما فيها من ضوء وظلام".

أغمض الجميع أعينهم للحظة، واستشعروا نسيم المدينة الذي يشد أواصرهم، لا كأفراد منفصلين، بل كجزء من نسيج أكبر، أعمق، لا ينتهي.

أخذ جون يهمس:

"سنرحل، لكن لن نغادر. لأن كل منا يحمل المدينة في قلبه، وحمله هو نفسه القصة التي لا تنتهي".

فتحت ناديا عينيها وقالت:

"وكل خطوة نخطوها، هي كتابة جديدة، وفصل جديد".

نظر ألدوس إلى الأفق وقال:

"النعش، إذًا، لا لنُقال، بل لنُحيا".

ابتسمت ميراي وقالت:

"وكل وداع هو بداية لقاء آخر، وكل نهاية هي بداية رحلة جديدة".

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ©

مصطفى أحمد الهجر

لا يجوز نسخ أو إعادة نشر أي جزء من هذا العمل بأي وسيلة كانت، سواء إلكترونية أو ورقية،

دون إذن خطي من المؤلف.

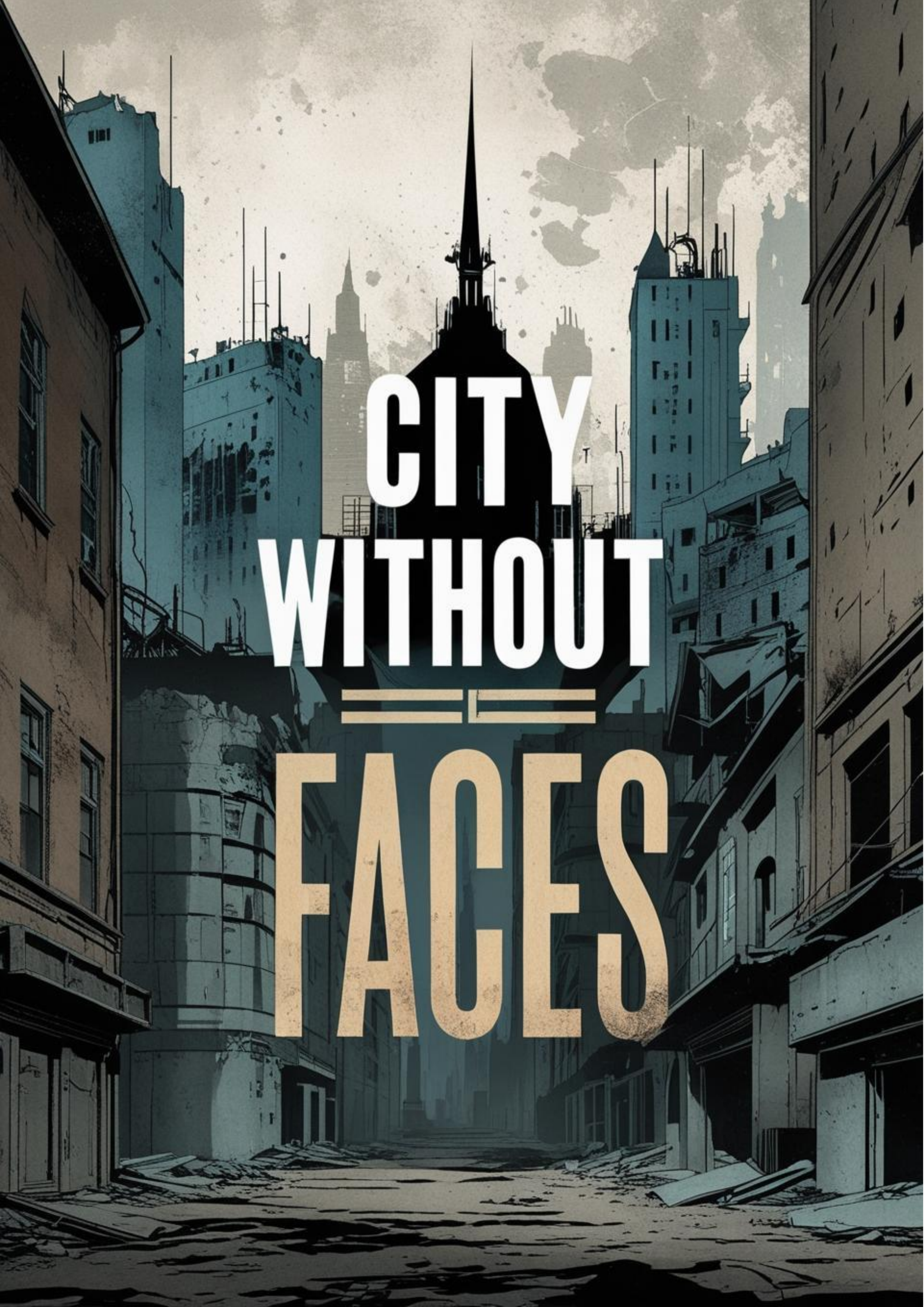
CITY
WITHOUT
FACES